مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل – قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ ، وأخذ رجلاً من بني عذرة دليلاً للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار ؛ حتى يفاجيء أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام رسول الله ﷺ أياماً ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن ، ودُومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن ، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالت عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وبإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن ، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود – الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم – لم يفيقوا من غيهم ، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر ، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين . ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم ، وتوطد سلطانهم ، تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق .

وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدون العدة ، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ، ويوالونهم عليه ، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم ، فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها في الخروج إلى بدر ، فرأت في ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً ، فاستجابوا لذلك ، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستجاب له من استجاب ، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته والمسلمين .

وفعلاً خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة – وقائدهم أبو سفيان – في أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ،

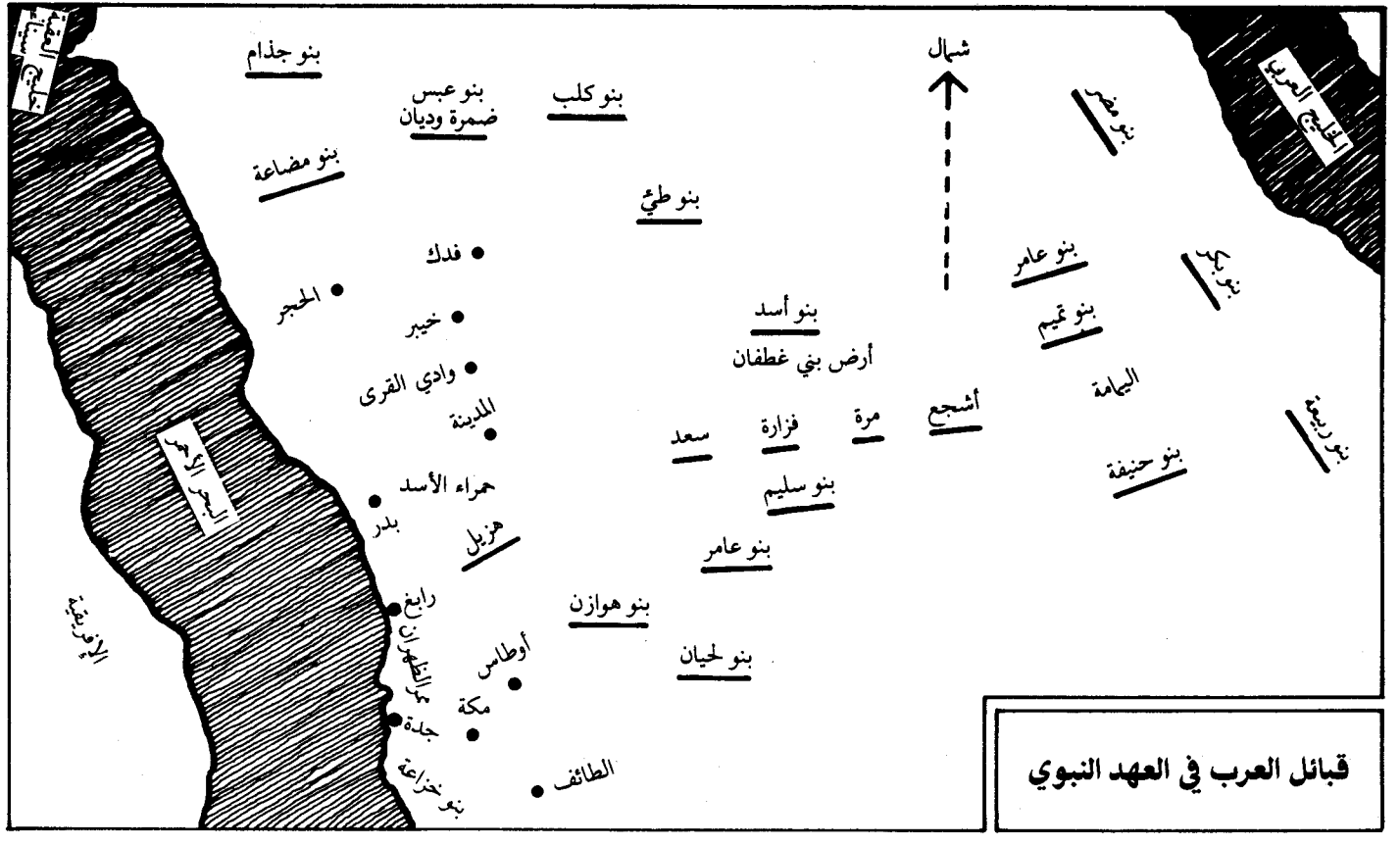

قبائل العرب في العهد النبوي
شمال
الخليج العربي
خليج العقبة
سيناء
البحر الأحمر
الإفريقية
بنو جذام
بنو عبس
ضمرة وديان
بنو كلب
بنو مضاعة
بنو طيئ
بنو مضر
بنو بكر
بنو ربيعة
بنو عامر
بنو تميم
اليمامة
بنو حنيفة
بنو أسد
أرض بني غطفان
أشجع
مرة
فزارة
سعد
بنو سليم
بنو عامر
بنو هوازن
بنو لحيان
فدك
الحجر
خيبر
وادي القرى
المدينة
حمراء الأسد
بدر
هزيل
رابغ
أوطاس
مكة
جدة
الطائف
بنو خزاعة

يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث بن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة كما خرجت بنو أسد وغيرها .

واتجهت هذه الأحزاب ، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة ، تتجسس الظروف ، وتقدر ما يتمخض عن مجراها ، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى ، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي الله عنه . قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا – وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك – .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً .

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا ، ففي البخاري عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا[1] ، فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار[2]

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

---

(١) أكتادنا : بالمثناة جمع كَتِد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٢/٥٨٨ .

اللهـــم إن العـيش عيش الآخـرة فـــاغفـــر للأنصـــار والمهـــاجـرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بـــايعـــوا محمــــداً عـــلى الجهـــاد مـــا بقـيـنـــا أبـداً[1]

وفيه عن البراء بن عازب قال : رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ، ويقول :

اللهـــم لولا أنت مـــا اهتــدينـــا ولا تصـــدقنـــا ولا صـــلينـــا

فـــأنــزلن ســكـيـنـــة عــلينـــا وثبت الأقـــدام إن لاقيـــنـــا

إن الألى قـــد بغـــوا عـــليـنـــا وإن أرادوا فتــنـــة أبيـــنـــا

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها ، وفي رواية :

إن الألى قـــدْ بغـــوا عـــليـنـــا وإن أرادوا فتــنـــة أبيـــنـــا[2]

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ، ما يفتت الأكباد قال أنس : (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفي من الشعير ، فيصنع لهم بإهَالَةٍ سَنِخَة[3] توضع بين يدي القوم ، والقوم جياع ، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن .

وقال أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين[4] .

وبهذه المنـــاسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة ، رأى جابر بن عبد الله في النبي ﷺ خمصـــاً شـــديداً ، فذبح بهيمـــة وطحنت امرأتـــه صـــاعاً من شعير ثم التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتي في نفر من أصحابه ، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق ، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت برمة اللحم تغطـبه كما هي ، وبقي العجين يخبز كما

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ٢/٥٨٩ .

(٣) نفس المصدر ٢/٥٨٨ . والإهَالة : الدهن الذي يؤتدم به سواء كان زيتاً أو سمناً أو شحماً سنخة : أي تغير طعمها ولونها من قدمها .

(٤) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٢/٤٤٨ .

هو[1] . وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله ، فمرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب[2] .

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال : إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر – ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقاً – فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[3] ، أي صار رملاً لا يتماسك .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني[4] .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[5] .

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمة المدينة – لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق في هذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم في حفره ، فكانوا يحفرونه طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم في

---

(١) روى ذلك البخاري ٢/٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٢) ابن هشام ٢/٢١٨ .

(٣) صحيح البخاري ٢/٥٨٨ .

(٤) سنن النسائي ٢/٥٦ ، وأحمد في مسنده واللفظ ليس للنسائي ، وفيه عن رجل من الصحابة .

(٥) ابن هشام ٢/٢١٩ .

المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة[1] .

وأقبلت قريش في أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد .

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٢) .

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم « حمّ لا ينصرون » ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها ، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة – كما قالوا – مكيدة ما عرفتها العرب ، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً ، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل ، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب ، ليبنوا به طريقاً يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، ودعا عمرو إلى المبارزة ، فانتدب له علي بن أبي طالب ، وقال

(١) نفس المصدر ٣/٣٣٠ ، ٣٣١ .

كلمة حمي لأجلها – وكان من شجعان المشركين وأبطالهم – فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليٍّ ، فتجاولا وتصاولا ، حتى قتله علي رضي الله عنه ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين ، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة ، لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين ، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق ، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبي ﷺ : « والله ما صليتها » ، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب[1] .

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين ، ففي البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس[2] .

وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فصلاهن جميعاً . قال النووي : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام ، وهذا في بعضها . انتهى[3] .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً ، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين ، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

(١) صحيح البخاري ٢/٥٩٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٨٧ ، وشرح مسلم للنووي ١/٢٢٧ .

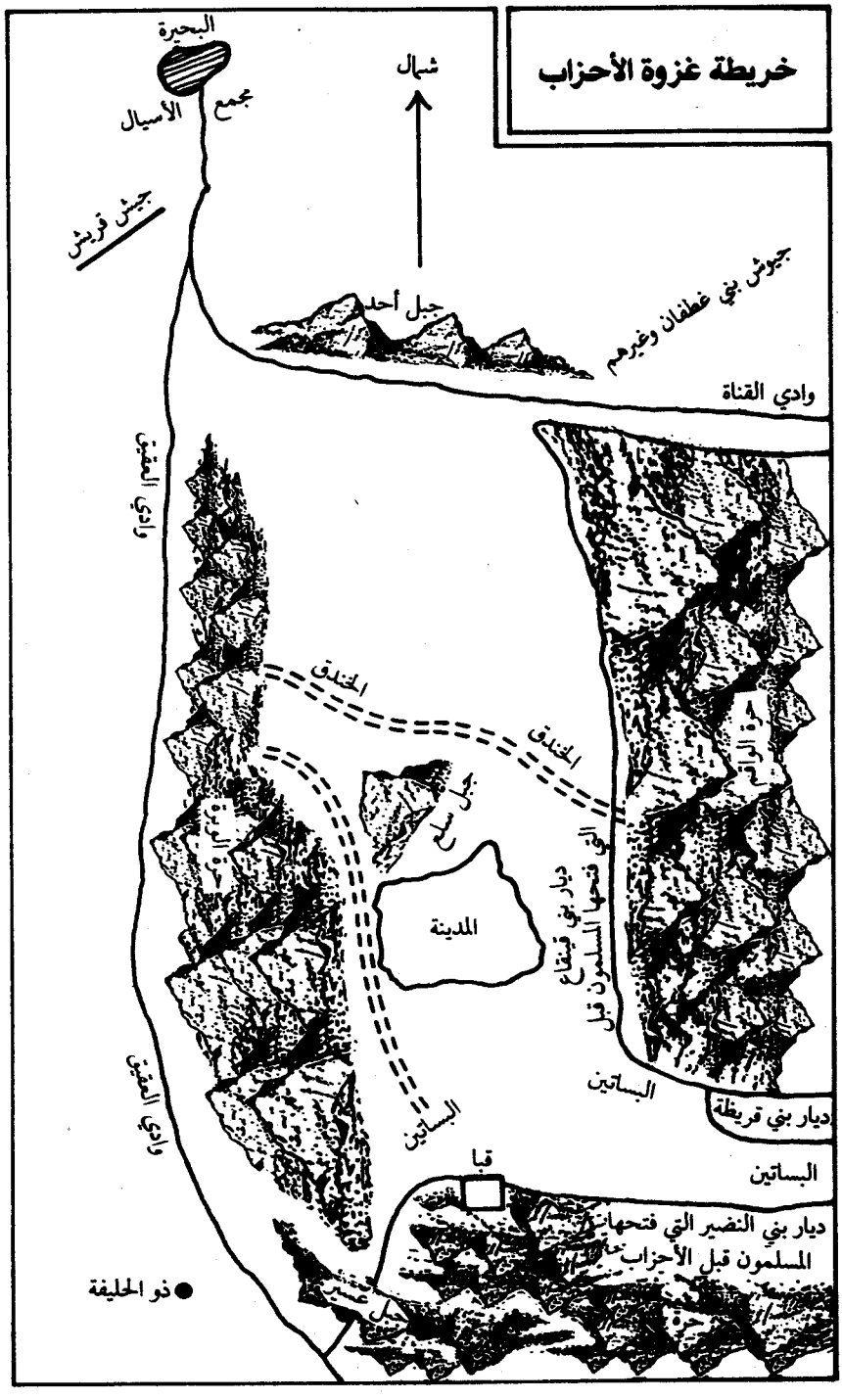
خريطة غزوة الأحزاب
البحيرة
مجمع الأسيال
شمال
جيش قريش
جبل أحد
جيوش بني غطفان وغيرهم
وادي القناة
وادي العقيق
الخندق
الخندق
جبل سلع
المدينة
ديار بني قينقاع التي فتحها المسلمون قبل
البساتين
ديار بني قريظة
البساتين
وادي العقيق
قبا
البساتين
ديار بني النضير التي فتحها المسلمون قبل الأحزاب
ذو الحليفة
جبل عير

وفي هذه المراماة رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة ، فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم ؛ حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها[1] . وقال في آخر دعائه : ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[2] .

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعي الدس والتآمر تتقلب في جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم . انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريظة ، فأتى كعب بن أسد القرظي – سيد بني قريظة ، وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم – فضرب عليه حيي الباب ، فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حيي : إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب ، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين[3] .

وفعلاً قد قامت يهود بني قريظة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت

(١) صحيح البخاري ٣/٥٩١ .
(٢) ابن هشام ٣/٣٣٧ .
(٣) ابن هشام ٢/٢٢٠ ، ٢٢١ .

صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت ، قالت : فقلت يا حسان ، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجزت[1] ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن ، وقلت : يا حسان انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسلبه من حاجة[2] .

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول الله ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون في منعة من الجيش الإسلامي – مع أنها كانت خالية عنهم تماماً – فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملي على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملاً .

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلي موقف قريظة ، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعدين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بين جبير ، وقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس » . فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد . فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أي أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

---

(١) احتجزت : شدت وسطها .

(٢) ابن هشام ٢/٢٢٨ .يحمل هذاالحديث على أن حساناً كان جباناً ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أن الحديث منقطع الإسناد ، ولو صح لهجي به حسان ، وإن صح الحديث فربما كان حسان معتلاً في ذلك اليوم ، وهذا أولى ما تأول .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٣٣ : ١٠ ، ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال : كان محمداً يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلاً ، حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح الأمل ، فنهض يقول : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره » ، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن ، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة ؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة ، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ؛ حتى ينصرفا بقومهما ، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً ، وجرت المراوضة على ذلك ، فاستشار السعدين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوَّب رأيهما وقال : « إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

ثم إن الله عز وجل – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذل به العدو ، وهزم جموعهم ، وفل حدهم ، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي – رضي الله عنه – جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، فذهب من فوره إلى بني قريظة – وكان عشيراً لهم في الجاهلية – فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت . قال : فإن قريشاً ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم ، قالوا فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأي .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحي لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت من شوال – سنة ٥هـ – بعثوا إلى اليهود : أنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم هو يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى اليهود : إنا والله لا نرسل إليكم أحداً ، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً . فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، قال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[1] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٤١١/١ ، وكتاب المغازي ٥٩٠/٢ .

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين ، فبعد أن دبت الفرقة في صفو ف المشركين ، وسرى بينهم التخاذل ، أرسل الله عليهم جنداً من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جنداً من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً ، وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر ، ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ، ونهايته في ذي القعدة ، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ؛ بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير ، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، تمخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب ، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[1] .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٩٠ .

غزوة بني قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكبه من الملائكة .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية علي بن أبي طالب ، وقدّمه إلى بني قريظة فسار علي حتى إذ دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ .

وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار ، حتى نزل على بئر من آبآر قريظة يقال لها بئر أنا ، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا ، حتى أن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة ، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها في الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين .

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً ، حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ثلاثون فرساً ، فنازلوا حصون بني قريظة ، وفرضوا عليهم الحصار .

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ، ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه ، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم – وقد قال لهم : والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم – وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم ، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مصلتين ، يناجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويكبسوهم يوم السبت ؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث ،

وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد (في انزعاج وغضب) : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره ، وكان حليفاً لهم ، وكانت أمواله وولده في منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه ، يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ، حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد ، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده ، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره – وكان قد استبطأه – قال : أما أنه لو جاءني لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون ، ولأن ا لمسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء ، مع شدة التعب الذي اعتراهم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب ، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وصاح علي : يا كتيبة الإيمان ، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال ، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت ، وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيهم ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان في المدينة ، لم يخرج معهم ؛ للجرح الذي كان أصاب أكحله في معركة الأحزاب ، فأركب حماراً ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون وهم كنفيه : يا سعد ، أجمل في مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم ، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم . فلما أنزلوه قالوا : يا سعد ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى من ههنا ؟ – وأعرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيماً – قال : نعم وعليَّ . قال : فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف ، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع – كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح ، وثلاثمائة درع ، وخمسمائة ترس وحجفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم .

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار ، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة ، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً ، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ما تراه يصنع بنا ؟ فقال : أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، فضربت أعناقهم .

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد ، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم – وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام – .

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير ، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها ، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام

غزوة الأحزاب ، فلما أُتي به – وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها – مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله ﷺ : أما والله ما لمت نفسي في معاداتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة ، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت ، وترك من لم ينبت ، فكان ممن لم ينبت عطية القرظي ، فترك حيا ، فأسلم ، وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله – وكانت للزبير يد عند ثابت – فوهبهم له ، فقال ثابت بن قيس : قد وهبك رسول الله ﷺ إليّ ، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك . فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه : سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة ، فضرب عنقه ، وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحيا ثابت – من ولد الزبير بن باطا – عبد الرحمن بن الزبير ، فأسلم ، وله صحبة . واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظي ، فوهبه لها ، فاستحيته ، فأسلم ، وله صحبة .

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول ، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم . وخرج تلك الليلة عمرو – وكان رجلاً لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ – فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي ، فخلى سبيله حين عرفه ، فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخمس ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفرس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهماً واحداً ، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري ، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه ، هذا ما قاله ابن إسحاق[1] وقال الكلبي : إنه ﷺ أعتقها ، وتزوجها سنة ٦هـ ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنها بالبقيع[2] .

(١) انظر ابن هشام ٢/٢٤٥ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٢ .

ولما أتم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه – التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب – وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعهم – وفي المسجد خيمة من بني غفار – إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغذوا جرحه دماً ، فمات منها[1] .

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ[2] . وصحح الترمذي من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »[3] .

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد ، الذي طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطاً ست ليال ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سَحَراً ، وهو في بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لي : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبي ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ٥هـ ، ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة[4] .

وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الوقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٩١ .

(٢) صحيح البخاري ١/٥٣٦ ،وصحيح مسلم ٢/٢٩٤ ، وجامع الترمذي ٢/٢٢٥ .

(٣) جامع الترمذي ٢/٢٢٥ .

(٤) ابن هشام ٢/٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيح البخاري ٢/٥٩٠ ، ٥٩١ ، زاد المعاد ٢/٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق – وكنيته أبو رافع – من أكابر مجرمي اليهود ، الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة[1] ، وكان يؤذي رسول الله ﷺ ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله ، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس ، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم ؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله ﷺ في قتله ، ونهى عن قتل النساء والصبيان ، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال ، كلهم من بني سلمة من الخزرج ، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة ، واتجهت نحو خيبر ، إذ كان هناك حصن أبي رافع ، فلما دنوا منه – وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم – قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ومتلطف للبواب ، لعلي أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإني أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود[2] قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل . قلت : إن القوم لو نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله ، فانتهيت إليه ،

(١) انظر فتح الباري ٣٤٣/٧ .

(٢) أي المفاتيح على وتد .

فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدري أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل ، إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله . ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أني قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلي ، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت في ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقي ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي ﷺ ، فحدثته فقال : « ابسط رجلك ، فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها »[1] .

هذه رواية البخاري ، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع ، واشتركوا في قتله ، وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً ، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه ، وأتوا منهراً من عيونهم فدخلوا فيه ، وأوقد اليهود النيران ، واشتدوا في كل وجه ، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم ، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ[2] .

كان مبعث هذه السرية في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥هـ[3] .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة ، واقتص من مجرمي الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٧٧ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٤٧ ، ٢٧٥ .

(٣) رحمة للعالمين ٢/٢٢٣ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة .

سرية محمد بن مسلمة:

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء ، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد ، وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطن بني بكر بن كلاب ، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم ، فاستاق المسلمون نعماً وشاءً ، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة ، كان قد خرج متنكراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر من مسيلمة الكذاب[1] ، فأخذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : « ما عندك يا ثمامة » ؟ فقال : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولاً ، ثم مر مرة ثالثة فقال – بعد ما دار بينهما الكلام السابق : أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، ووالله ما كان على وجه الأرض دين أبغض عليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم على قريش قالوا : صبأت يا ثمامة ، قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . وكانت يمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ[2] .

غزوة بني لحيان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع ، وتسببوا في إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة ، والثارات الشديدة قائمة

(١) السيرة الحلبية ٢/٢٩٧ .

(٢) زاد المعاد ٢/١١٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٩٢ ، ٢٩٣ .

بين المسلمين وقريش والأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦هـ في مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران – واد بين أمج وعسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم – وسمعت به بنو لحيان ، فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقدروا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى المدينة ، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا . وهاك صورة مصغرة منها :

١ – سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر ، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ . خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر ، ماء لبني أسد ، ففر القوم ، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة .

٢ – سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة ، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ . خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى القصة في ديار بني ثعلبة ، فكمن القوم لهم – وهم مائة – فلما ناموا قتلوهم ، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً .

٣ – سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة ، في ربيع الآخر سنة ٦هـ . وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم ، فساروا ليلتهم مشاة ، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح ، فأغاروا عليهم ، فأعجزوهم هرباً في الجبال ، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم ، وغنموا نعماً وشاءً .

٤ – سرية زيد بن حارثة إلى الجموم ، في ربيع الآخر سنة ٦هـ . والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران ، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من بني

سليم أصابوا فيها نعماً وشاءً وأسرى ، فلما قفل بما أصاب ، وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها .

٥ – سرية زيد أيضاً إلى العيص ، في جمادى الأولى سنة ٦هـ ، في سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ ، وأفلت أبو العاص ، فأتى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم ، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير ، حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف . كما ثبت في الحديث الصحيح[1] ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى ، كما أنه ليس بصحيح سنداً[2] . والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف ، فإنهم يقولون : إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح ، ثم يناقضون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان . وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المرام ، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه ، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ – سرية زيد أيضاً إلى الطرف أو الطرق ، في جمادى الآخرة سنة ٦هـ . خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة ، فهربت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم ، فأصاب من نعمهم عشرين بعيراً ، وغاب أربع ليال .

٧ – سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى ، في رجب سنة ٦هـ . خرج زيد في اثني عشر رجلاً إلى وادي القرى ؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادي القرى ، فقتلوا تسعة ، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة[3] .

---

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها .

(٢) انظر الكلام على الحديثين في تحفة الأحوذي ٢/١٩٥/١٩٦ .

(٣) رحمة للعالمين ٢/٢٢٦ ، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ٢/١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، وحواشي تلقيح فهوم أهل الأثر ص٢٨ ، ٢٩ .

٨ – سرية الخبط – تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨هـ ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر ، بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح ، نرصد عيراً لقريش ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمي جيش الخبط ، فنحر رجل ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه ، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر ، وأدهنا منه ، حتى ثابت منه أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته ، وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة ، أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ذلك ، فقال : هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه[1] .

وإنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٦٢٥ ، ٦٢٦ ، صحيح مسلم ٢/١٤٥ ، ١٤٦ .

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع
(في شعبان سنة ٦هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل ، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية ؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس . ونسرد الغزوة أولاً ، ثم نذكر تلك الوقائع .

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال[1] . وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي ؛ لتحقيق الخبر فأتاهم ، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة ، وأسرع في الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها ، واستعمل على

---

(١) والدليل على ذلك ما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت بعدما أنزل الحجاب ، وآية الحجاب نزلت في شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحته ، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت : أحمي سمعي وبصري . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تنازعا في أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بني قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم الراوي ، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ٢/١١٥) والعجب من محمد الغزالي أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص٢٢٣) مع أن كلامه في الهدي (٢/١١٥) يأبى عن ذلك .

المدينة زيد بن حارثة ، وقيل أبا ذر ، وقيل نميلة بن عبد الله الليثي ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عيناً ؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي ، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه ، خافوا خوفاً شديداً ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع – بالضم فالفتح مصغراً ، اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل – فتهيؤوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ورأية المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، ورأية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فترامواً بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرة . وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازي والسير ، قال ابن القيم : وهو وَهْم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون ، وذكر الحديث[1] انتهى .

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ[2] .

وأما الوقائع التي حدثت في هذه الغزوة ؛ فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي .

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبي كان يحنق على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما على رسول الله ﷺ حنقاً شديداً . لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن ابن أبي ، كان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلبه ملكه .

---

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العتق ١/٣٤٥ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٧/٣٤١ .

(٢) زاد المعاد ٢/١١٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢/٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ، فخمر ابن أبي أنفه وقال : لا تغبروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : اجلس في بيتك ، ولا تغشنا في مجلسنا[1] .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدواً لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي ، وتوهين كلمة الإسلام ، وكان يوالي أعداءه ، وقد تدخل في أمر بني قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين ، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب ، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد – مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع – قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي[2] .

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ إلى قوله ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن

---

(١) ابن هشام ٥٨٤/١ ، ٥٨٧ . صحيح البخاري ٩٢٤/٢ ، وصحيح مسلم ٩/٢ .

(٢) ابن هشام ١٠٥/٢ .

﴿يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي ، وكثرة السلاح والجيوش والعدد ؛ وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي ، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ ، الذي هو المثل الأعلى – إلى حد الإعجاز – لهذه القيم .

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين ، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية . ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة ، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين . تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبي .

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب ، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبي ، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذي تبناه ، فلما تزوج النبي ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلمتين – حسب زعمهم – لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية :أن زينب كانت زوجة ابنه – متبناه – فالزواج بها من أكبر الكبائر ، حسب تقاليد العرب – وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل ، واختلقوا قصصاً وأساطير ، قالوا : إن محمداً رآها بغتة ، فتأثر بحسنها فشغفه حباً ، وعلقت بقلبه ، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشراً بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد

أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات ، فيها شفاء لما في الصدور ، وينبيء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٣: ١) .

وهذه إشارات عابرة ، وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق ، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف ، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم ، أو يتحملونه بالصبر ، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى ، حسب قوله تعالى : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٩ : ١٢٦) .

دور المنافقين في غزوة بني المصطلق:

ولما كانت غزوة بني المصطلق ، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ ، وهاك بعض التفصيل عنها .

١ـ قول المنافقين: ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيماً على المريسيع ، ووردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفاري ، فازدحم هو وسنان بن وبر الجهني على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة . وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب – وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث – وقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر ، فقال عمر : مر عباد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقيه أسيد بن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت في ساعة منكرة ؟ فقال له : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ يريد ابن أبي ، فقال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً .

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . فعل ذلك ؛ ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ ، وحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، فصدقه ، قال زيد : فأصابني هم لم يصبني مثله قط ، فجلست في بيتي ، فأنزل الله ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ إلى ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها عليَّ ، ثم قال : إن الله قد صدقك[1] .

وكان ابن هذا المنافق – وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي – رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار ، فتبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبي قال له : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء

---

(١) انظر صحيح البخاري ٤٩٩/١ ، ٧٢٧/٢ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، وابن هشام ٢٩٠/٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

النبي ﷺ أذن له ، فخلى سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي : يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك ، فأنا والله أحمل إليك رأسه[1] .

٢ ـ حديث الافك:

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ، وكانت تلك عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها ، وأيضاً فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت في المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ ـ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رآها عرفها ، وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها ، فركبتها ، وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته ، وما يليق به ، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفساً ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الإفك ، ويستوشيه ، ويشيعه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه ، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، ثم استشار أصحابه ـ لما استلبث الوحي طويلاً ـ في فراقها ، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها ، ويأخذ غيرها ، تلويحاً لا تصريحاً ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء . فقام على المنبر يستعذر من عبد الله بن أبي ، فأظهر أسيد بن حضير

---

(١) نفس المصدر الأخير ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص٢٧٧ .

سيد الأوس رغبته في قتله ، فأخذت سعد بن عبادة – سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي – الحمية القبلية ، فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان ، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة ؛ فما رجعت مرضت شهراً ، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً ، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلاً ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فدعت على ابنها ، فاستنكرت ذلك عائشة منها ، فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ ؛ لتأتي أبويها وتستيقن الخبر ، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكي ، فبكت ليلتين ويوماً ، لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرقأ لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدها ، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك ، فتشهد وقال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحينئذ قلص دمعها ، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا ، فلم يدريا ما يقولان ، فقالت : والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة – والله يعلم أني بريئة – لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم إني منه بريئة – لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف . قال :﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحي ساعته ، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومي إليه .. فقالت عائشة – إدلالاً ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ – : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذي أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ .العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك ، والذي تولى كبره ، إما لأن

الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، وإما للمصلحة التي ترك لأجلها قتله[1] .

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة ، وافتضح رأس المنافقين افتضاحاً لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أُنُف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[2] .

---

(١) صحيح البخاري ١/٣٦٤ ، ٢/٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، زاد المعاد ٢/١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ وابن هشام ٢/٢٩٧ إلى ٣٠٧ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٩٣ .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

١ – سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل ، في شعبان سنة ٦هـ . أقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ ، وهي أم أبي سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكهم .

٢ – سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك ، في شعبان سنة ٦هـ . وذلك أنه بلغ رسول الله أن بها جمعاً يريدون أن يمدوا اليهود ، فبعث إليها علياً في مائتي رجل ، وكان يسير الليل ويكمن النهار ، فأصاب عيناً لهم ، فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر ، ودل العين على موضع تجمع بني سعد ، فأغار عليهم علي ، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .

٣ – سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى ، في رمضان سنة ٦هـ . كان بطن فزارة يريد اغتيال النبي ﷺ ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق . قال سلمة بن الأكوع : وخرجت معه ، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة وفيهم الذراري ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فيهم امرأة هي أم قرفة عليها قشع من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنفلني ابو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوباً ، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدي بها أسرى من

المسلمين هناك[1] .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ – سرية كرز بن جابر الفهري[2] إلى العرنيين ، في شوال سنة ٦هـ وذلك أن رهطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام ، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم ، فبعث في طلبهم كرزا الفهري في عشرين من الصحابة ، ودعا على العرنيين : اللهم اعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم أضيق من مسك ، فعمى الله عليهم السبيل ، فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، جزاء وقصاصاً بما فعلوا ، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا[3] وحديثهم في الصحيح عن أنس[4] .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة ، في شوال سنة ٦هـ ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا في الاغتيال ، لا هذا ، ولا ذاك ، ويذكرون أن عمراً قتل في الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر ، والمعروف أن خبيبا استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤هـ ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصور فوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبني قريظة ، لم يجر في واحدة منها قتال مرير ، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت

---

(١) انظر صحيح مسلم ٨٩/٢ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

(٢) هذا هو الذي كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر في غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة .

(٣) زاد المعاد ١٢٢/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٦٠٢/٢ .

معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية ، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام ، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية .

وقعة الحديبية
(في ذي القعدة سنة ٦ هـ)

سبب عمرة الحديبية:

ولما تقدم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً ، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أُريَ رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك ، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، وغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثي ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة ٦هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، في ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك في اتجاه مكة ، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : « أترون نميل

إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، لم نجيء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فزوحوا ، فراحوا » .

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً ، قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن ، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش ، نقل إليه رجل من بني كعب أن قريشاً نازلة بذي طوى ، وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم ، في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة . وقد حاول خالد صد المسلمين ، فقام بفرسانه إزاءهم يتراآى الجيشان ، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال : لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ثم قرر أن يميل على المسلمين – وهم في صلاة العصر – ميلة واحدة ، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف ، ففاتت الفرصة خالداً .

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعراً بين شعاب ، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهري الحمش ، في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة ، وترك الطريق الرئيسي الذي يفضي إلى الحرم ماراً بالتنعيم ، تركه إلى اليسار ، فلما رأى خالد قترة الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش .

وسار رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل ، فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ، ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى

الحديبية ، على ثمد[1] قليل الماء ، إنما يتبرضه[2] الناس تبرضاً ، فلم يلبث أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله ـ ﷺ ـ وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة[3] نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[4] ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . قال رسول الله ﷺ : « إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشاً : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي منهم هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مكرز بن حفص ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة ـ اسمه الحليس بن علقمة ـ : دعوني آته . فقالوا : آته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء

---

(١) ثمد : حوض .

(٢) يتبرض : يأخذ منه القليل .

(٣) عيبة نصح الرجل : موضع سره .

(٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوذ : الإبل حديثة النتاج ، والمطافيل : التي معها أولادها .

أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

فقال عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته فقالوا : آته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشاً من الناس خلقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك . وجعل يكلم النبي ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر ، أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء (وكان المغيرة ابن أخي عروة) .

ثم إن عروة جعل يمرق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

هو الذي كف أيديهم عنكم:

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامحون إلى الحرب ، رغبة زعمائهم في الصلح ، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحداثاً تشعل نار الحرب ، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم

ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعاً . ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤٨ : ٢٤) .

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش:

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيراً يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فاعتذر قائلا : يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ كذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ثم أسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش . فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، لكنه رفض هذا العرض ، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسته قريش عندها – ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن ، ويبرموا أمرهم ، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة – وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا ، وبايعته جماعة على الموت ، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، في أول الناس ووسطهم وآخرهم ، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان ، ولما تمت البيعة جاء

عثمان فبايعه ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذاً بيده ، ومعقل بن يسار آخذاً بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الآية (٤٨ : ١٨) .

إبرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش حراجة الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال : قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلاً ، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه :

١ – الرسول – ﷺ – يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً ، معهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض .

٢ – وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ – من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق ، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

٤ – من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليّه – أي هارباً منهم – رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد – أي هارباً منه – لم يرد عليه .

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب ، فأملى عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبي ﷺ علياً بذلك . ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال : إني رسول الله وإن كذبتموني ،

وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ ، فمحاه ﷺ بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ – وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا في أوائل المقالة ، فكان دخولهم في هذا العهد ؛ تأكيداً لذلك الحلف القديم – ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

رد أبي جندل:

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده . فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إذاً لا أقاضيك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ فأجزه لي . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أُأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

النحر والحلق للحل عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحروا ، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد

بعضهم يقتل بعضاً غماً ، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل ، كان في أنفه برة من فضة ، ليغيظ به المشركين ، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً بالمغفرة وللمقصرين مرة وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك في شأن كعب بن عجرة .

الاباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذي تم في الحديبية ، فرفض طلبهم هذا ، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)[1] فلم تدخل النساء في العقد رأساً . وأنزل الله في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ ، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايعتك . ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . تزوج بإحداهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة:

هذه هي هدنة الحديبية ، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين ، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف ، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم ، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية ، وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب ، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية ، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشاً ، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل . أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى

(١) صحيح البخاري ١/٣٨٠ .

قريش ؟ وفتحاً مبيناً بالنسبة إلى المسلمين ؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها – بالنسبة إلى المسلمين – مصادرة الأموال وإبادة الأرواح ، وإفناء الناس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات ، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه ، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين ، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة ، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة ؛ صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف .

أما البند الثاني ؛ فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين ، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب ، وإنما بدأتها قريش ، يقول الله تعالى ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها ، وصدها عن سبيل الله ، وتعمل معهم بالمساواة ، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد ، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره .

أما البند الأول ؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام ، فهو أيضاً فشل لقريش ، وليس فيه ما يشفي قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط .

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين ، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط ، وهي ما في البند الرابع ، ولكن تلك الخلة تافهة جداً ، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين ، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله ، وعن مدينة الإسلام ، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً ، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين ، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه ، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله[1] ، وأما من أسلم من أهل مكة – فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل – لكن أرض الله واسعة ، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً ؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله « ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً »[2] .

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ٢/١٠٥ .

(٢) نفس المصدر .

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش ، لكنه في الحقيقة ينبيء عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم ، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني ، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار ، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين ، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي - ﷺ -:

هذه هي حقيقة بنود هذه الهدنة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد ، **الأولى** : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به ، فماله يرجع ولم يطف به ؟ **الثانية** : أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه ، فماله قبل ضغط قريش ، وأعطي الدنية في الصلح ؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون . وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة ، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح . ولعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصري ، ولن يضيعني أبداً . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغيظاً فأتى أبا بكر ، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

ثم نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم . فطابت نفسه ورجع .

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً . قال عمر : فعملت لذلك أعمالا ، مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى

رجوت أن يكون خيراً[1] .

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، ممن كان يعذب من مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر ، فقال : أجل . والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد .

وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل صاحبي ، وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير وقال : يا نبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فقدموا عليه المدينة[2] .

إسلام أبطال من قريش:

وفي أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والهدنة ، فتح الباري ٤٣٩/٧ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخاري ٣٧٨/١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٥٩٨/٢ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، صحيح مسلم ١٤٠/٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ابن هشام ٣٠٨/٢ إلى ٣٢٢ ، زاد المعاد ١٢٢/٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٠٧ إلى ٣٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصادر السابقة .

وعثمان بن طلحة ، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال : إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها[1] .

(١) اختلفوا كثيراً في تعيين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشي معروفة ، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه في الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا وهذا يقتضي أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية
طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام ، والمسلمين ، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام ، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام ، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة – قريش وغطفان واليهود – ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرةالعرب ، انخفضت حدة مشاعر الوثنيين ، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة ، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر . كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ ، وتؤجج نار الفتنة ، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم ، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال ، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري . ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين :

(١) النشاط في مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

(٢) النشاط العسكري .

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة ، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعاً ، بل ذلك هو الهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلاقل والاضطرابات .

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم ، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا :

الله

رسول[1]

محمد

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصور فوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام[2] . وفيما يلي نصوص هذه الكتب ، وبعض ما تمخضت عنه .

١ ـ الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الابجر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبري نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق في ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكي ،

(١) صحيح البخاري ٢/٨٧٢ ، ٨٧٣ .

(٢) رحمة للعالمين ١/١٧١ .

فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر) .

وروى البيهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصاري من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب – كما أورده ابن القيم مع الاختلاف في كلمة فقط – وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهداً بليغاً واستعان في ذلك كثيراً باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدي ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ﷺ ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى[1] .

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديبية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه ، والذي أورده البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي

(١) انظر رسول أكرم كي سياسي زندكي (بالأردو) ص١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، وفي زاد المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى . انظر زاد المعاد ٣/٦٠ .

كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصاري بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ ﴾ إلخ كما كان دأبه في تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحاً ، وأما النص الذي أورده الدكتور حميد الله ، فالأغلب عندي أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندي عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤديها نصوص هذه الكتب . والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذي أورده البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد في هذا النص صريحاً والعلم عند الله[1] .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب . وكتب إلى النبي ﷺ بذلك ، وهاك نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، والله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين[2] .

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة ، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخيبر[3] . توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته ، وصلى عليه

(١) انظر لهذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله « رسوم أكرم كي سياسي زندكي » ص١٠٨ ، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١ .

(٢) زاد المعاد ٦١/٣ .

(٣) ابن هشام ٣٥٩/٢ .

صـلاة الغائب . ولما مات وتخلف على عرشـه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر ولا يدرى هل أسلم أم لا ؟[1] .

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر:

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متى[2] ، الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط. ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3] .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة . فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

---

(١) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢/٩٩ .

(٢) هذا على رأي العلامة المنصورفوري في كتابه رحمة للعالمين ١/١٧٨ ؛ وقال الدكتور حميد الله « إن اسمه بنيامين » انظر : رسول أكرم كي سياسي زندكي ص١٤١ .

(٣) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٣/٦١ والذي أورده الدكتور حميد الله أخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، ففيه « فأسلم تسلم يؤتك الله » الخ . وفيه « إثم القبط » بدل قوله « إثم أهل القبط » انظر : رسول أكرم كي سياسي زندكي ص١٣٦ ، ١٣٧ .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريتان مارية ، وسيرين ، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية[1] ، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له ، وهي التي ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري .

٣ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي ، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين ، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته ، أم بعث عبد الله السهمي ، وأياً ما كان فلما قرىء الكتاب على كسرى مزقه ، وقال في غطرسة : عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : مزق الله ملكه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتياني

(١) زاد المعاد ٣/٦١ .

به . فاختار باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما المدينة ، وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثني إليك لتنطلق معي ، وقال قولاً تهديدياً ، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقياه غداً .

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع[1] ، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي ، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك : فقالا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عني ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري .

وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن[2] .

٤ ـ الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[3] .

---

(١) فتح الباري ١٢٧/٨ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٤٧/١ ، فتح الباري ١٢٧/٨ ، ١٢٨ وانظر رحمة للعالمين أيضاً ج .

(٣) صحيح البخاري ٤/١ ، ٥ .

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء[1] ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانة : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه .

ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه : قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها – قال : ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة – قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب

(١) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء – بيت المقدس – من حمص ، شكراً لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩/٢) ، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز ، وصالحوا الروم على رد ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر ، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أي سنة ٧هـ) يضع الصليب في موضعه ، ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أُمِرَ أمر ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام[1] .

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهي وراء وادي القرى في خمسمائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، واستاق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسبي مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق ، فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبي .

---

(١) صحيح البخاري ١/٤ ، صحيح مسلم ٢/٩٨ ، ٩٩ .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك[1] .

٥ ـ الكتاب إلى المنذر بن ساوى:

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ، فأحدث إلي في ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية »[2] .

٦ ـ الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة:

وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري ، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله ، وحياه ، وقرأ عليه الكتاب ، فرد عليه رداً دون رد ، وكتب إلى النبي ﷺ :

(١) انظر زاد المعاد ١٢٢/٢ ، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص٢٩ .

(٢) زاد المعاد ٦١/٣ ، ٦٢ ، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف في كلمة واحدة ، ففيه « لا إله غيره » بدل قوله : « لا إله إلا هو » .

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطاً بجائزة ، وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما في يديه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات ، فقال النبي ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى ، يقتل بعدي ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان كذلك[1] .

٧ ـ الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:

كتب إليه النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقي لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه . ولم يسلم[2] .

٨ ـ الكتاب إلى ملك عمان:

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندى ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله (ﷺ) إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيلي تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ـ وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقاً ـ فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم علي بالسن والملك ،

---

(١) زاد المعاد ٣/٦٣ .

(٢) نفس المصدر ٣/٦٢ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤٦ .

وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : وكيف صنع قومه بملكه ، فقلت أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت ، وما نستحله في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى ، قال : فبأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ ، قال : لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به ، ولكن أخي أضر بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه . فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : يا عمرو ، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أياماً ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي ، فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أني رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرني عن قريش كيف

صنعت ؟ فقلت : تبعوه ، إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعني يومي هذا ، وارجع إلي غداً .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه . حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي ، وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كقتال من لاقى . قلت : أنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه ، فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلي ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقا النبي ﷺ ، وخليا بيني وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني[1] .

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك ، والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض . فمنهم من آمن به ومنهم من كفر . ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

---

(١) زاد المعاد ٣/٦٢ ، ٦٣ .

النشاط العسكري
بعد صلح الحديبية
غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ .

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية ، وقبل خيبر . ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث ، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع . وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي[1] .

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح ، وأنا معه بفرس أبي طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر ، فاستاقه أجمع ، وقتل راعيه ، فقلت : يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ . ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثاً : يا صباحاه ، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز ، أقول :

أنـــــا ابن الأكوع واليـــوم يـــوم الرضـــع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إليَّ فارس جلست في أصل الشجرة ، ثم رميته فعقرت به ، حتى إذا دخلوا في تضـايق الجبل علوته ، فجعلت أرميهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري ، وخلوا بيني وبينه ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رمحاً يستخفون ،

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٦٠٣/٢ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٣/٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، وفتح الباري ٤٦٠/٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، زاد المعاد ١٢٠/٢ .

ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراما من الحجارة ، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلي منهم أربعة في الجبل ، قلت : هل تعرفونني ؟ أنا سلمة بن الأكوع ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني فيدركني ، فرجعوا . فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . فإذا أولهم أخرم ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأخرم ، فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، نتبعهم ، أعدو على رجلي ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجليتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه ، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء ، فقلت : يا رسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح ، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فأسجح [1] ، ثم قال : إنهم ليقرون الآن في غطفان .

وقال رسول الله ﷺ : خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة . وأعطاني سهمين ، سهم الراجل وسهم الفارس ، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة .

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو [2] .

---

(١) أسجح : أي سهل والمعنى قدرت فاعف .

(٢) انظر المصدرين السابقين ، وزاد المعاد ٢/١٢٠ .

(غزوة خيبر ووادي القرى)

(في المحرم سنة ٧هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلا من المدينة في جهة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمناً باتاً بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين – اليهود وقبائل نجد – حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء في المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين – الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي – وبغطفان وأعراب البادية – الجناح الثالث من الأحزاب – وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية ، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسير بن رزام ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم – وهي قريش – كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر:

قاال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ (٤٨ : ٢٠) يعني صلح الحديبية ، وبالمغانم الكثيرة خيبر

عدد الجيش الإسلامي:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر ، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وقال ابن إسحاق : نميلة بن عبد الله الليثي ، والأول أصح عند المحققين[1] .

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً ، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوده ، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهماتهم .

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر : أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر ، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان . يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود

(١) انظر فتح الباري ٤٦٥/٧ ، زاد المعاد ١٣٣/٢ .

خيبر ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين .

الطريق إلى خيبر:

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش – وكان اسم أحدهما حسيل – ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال – أي جهة الشام – فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله – ﷺ – ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمر أن يسميها له واحداً واحداً . قال : اسم واحد منها حزن فأبى النبي ﷺ من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضاً ، وقال حسيل : فما بقي إلا واحداً قال عمر : ما اسمه قال : مرحب ، فاختار النبي ﷺ سلوكه .

بعض ما وقع في الطريق:

١ – عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال ، رجل من القوم لعامر : يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ – وكان عامر رجلاً شاعراً – فنزل يحدو بالقوم . يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق » ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به[1] .

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد[2] ، وقد وقع في حرب خيبر .

٢ ـ وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ : « أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً[3] .

٣ ـ وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثري ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، ومضمض الناس . ثم صلى ولم يتوضأ[4] ، ثم صلى العشاء[5] .

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبي ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين[6] .

وكان النبي ﷺ اختار لمعسكره منزلاً ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأي في الحرب ؟ قال : « بل هو الرأي » ، فقال : يا رسول الله

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣ ، صحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢/١١٥ .
(٢) نفس المصدر الأخير .
(٣) صحيح البخاري ٢/٦٠٥ .
(٤) نفس المصدر ٢/٦٠٣ .
(٥) مغازي الواقدي (غزوة خيبر ص١١٢) .
(٦) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣ ، ٦٠٤ .

إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة ، وجميع مقاتلي خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندري أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا . وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضاً هذا بين النخلات ، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكراً . قال ﷺ : « الرأي ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر » .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال : « قفوا » . فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله »[1] .

التهيؤ للقتال وحصون خيبر:

ولما كانت ليلة الدخول قال : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال : « أين علي بن أبي طالب » ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه[2] . قال : « فأرسلوا إليه » . فأُتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : « انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[3] .

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ – حصن ناعم .

٢ – حصن الصعب بن معاذ .

٣ – حصن قلعة الزبير .

٤ – حصن أبي .

---

(١) ابن هشام ٢/٣٢٩ .

(٢) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف في أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٣) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٥٠٥ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلي كان بعد فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجح عند المحققين هو ما ذكرنا .

٥ – حصن النزار .

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثاني ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ – حصن القموص (كان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير) .

٢ – حصن الوطيح .

٣ – حصن السلالم .

وفي خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها .

والقتال المرير إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالألف .

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمي عامر فقال :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق اليهودي ليضربه ، فيرجع ذباب سيفه ، فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : « إن له لأجرين وجمع بين أصبعيه ، إنه لجاهِدٌ مجاهِدٌ قل عربي مشى بها مثله »[1] .

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت خيبر أني مرحب .. إلخ ، فبرز له علي بن أبي طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال علي :

أنـــا الذي سمتـــني أمي حيـــدره كليث غـــابـــات كريـــه المـنـظـره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه[2] .

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن ، وقال : من أنت ، فقال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتل ابني ؟ قال : « بل ابنك يقتله » . فقتله الزبير .

ودار القتال المرير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياماً لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين ، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمون

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ١٢٢/٢ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢ ، صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢ .

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحباً ، وفي اليوم الذي قتل فيه ، وفتح هذا الحصن . وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضاً ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري .

بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث ، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

وروى ابن إسحاق : أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء ، فقال : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاماً وودكاً » . فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه[1] .

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية إبن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع في رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصراً ثلاثة أيام . فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليه أصحروا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن هشام ملخصاً ٢/٣٣٢ ، والودك : دسم اللحم .

فتح قلعة أبي:

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهما أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامي ، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن في الشطر الأول .

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصاري جهدهم في هذا السبيل ، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء ، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير في داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا – من فروا – من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر ، وهي ناحية النطاة والشق ، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى ، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون ، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر .

فتح الشطر الثاني من خيبر:

ولما فتح ناحية النطاة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصن أبي الحقيق من بني النضير ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام[1] .

أما الواقدي ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية – الكتيبة – فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة:

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ : أنزل فأكلمك ؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة ، وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء – أي الذهب والفضة – والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان[2] ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً ، فصالحوه على ذلك[3] . وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

---

(١) ابن هشام ٢/٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٢) ولكن صرح في رواية أبي داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبي داود ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٢/٧٦) .

(٣) زاد المعاد ٢/١٣٦ .

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالاً كثيراً ، غيبا مسكا فيه مال وحلى لحيي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال : رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة ، فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأبى أن يؤديه . فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مَسْلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن مَسْلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحى ، وهو يستظل بالجدار فمات) .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق ، وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت تحت كنانة ابن أبي الحقيق ، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلي اليهود من خيبر ، فقالوا : يا محمد ، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهماً ، وجمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ،

سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد[1] .

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر[2] . ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل[3] .

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعريين:

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين – أنا وأخوان لي – في بضع وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفراً وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم[4] .

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[5] .

---

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢ ، ١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢ .

(٣) زاد المعاد ١٤٨/٢ ، صحيح مسلم ٩٦/٢ .

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١ ، وانظر أيضاً فتح الباري ٤٨٤/٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٥) زاد المعاد ١٣٩/٢ .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاؤوا إلى المدينة قبل ذلك[1] .

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صفية جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع السبي جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يا نبي الله ، أعطني جارية من السبي . فقال : اذهب فخذ جارية . فأخذ صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبني النضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من السبي غيرها ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروساً بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبني بها[2] .

ورأى بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجري ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجي ، فلطم وجهي . فقال : تمنين هذا الملك الذي بالمدينة[3] .

أمر الشاة المسمومة:

ولما اطمأن رسول الله بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، – امرأة سلام بن مشكم – شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يسغها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٢٨/١ .

(٢) صحيح البخاري ٥٤/١ ، ٦٠٤/٢ ، ٦٠٦ ، زاد المعاد ١٣٧/٢ .

(٣) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٣٣٦/٢ .

العظم ليخبرني أنه مسموم . ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معرور ، أخذ منها أكلة ، فأساغها ، فمات منها .

واختلفت الروايات في التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً ، فلما مات بشر قتلها قصاصاً[1] .

قتلى الفريقين في معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقون من الأنصار .

ويقال : إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلاً . وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلاً ، ثم قال: إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسماً ، واحد منها في الطبري فقط ، وواحد عند الواقدي فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة ، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر . والصحيح أنه قتل في بدر[2] .

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً .

فدك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك ، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب[3] .

---

(١) انظر زاد المعاد ١٣٩/٢ ، ١٤٠ ، فتح الباري ٤٩٧/٧ ، وأصل القصة مروية في البخاري مطولاً ومختصراً ، ٤٤٩/١ ، ٦١٠/٢ ، ٨٦٠ ، وفي ابن هشام ٣٣٧/٢ ، ٣٣٨

(٢) رحمة للعالمين ٢٦٨/٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) ابن هشام ٣٣٧/٢ ، ٣٥٣ .

وادي القرى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، انصرف إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة ، فقتل مدعم عبد لرسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال النبي ﷺ : كلا . والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم ، لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه ناراً . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبي ﷺ : شراك من نار أو شراكان من نار[1] .

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عبَّاد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلي بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها[2] (كما عامل أهل خيبر) .

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح . فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم[3] ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبني

(١) صحيح البخاري ٢/٦٠٨ .

(٢) زاد المعاد ٢/١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) نفس المصدر ٢/١٤٧ .

عاديا ، إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد[1] .

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة ، وفي مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق ، وقال لبلال : « اكلأ لنا الليل » فغلبت بلال عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادي ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا السفر[2] .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة٧هـ .

سرية أبان بن سعيد:

كان النبي ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماماً بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعاً ، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب أو أعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب ، تحت قيادة أبان بن سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجباً عليه ، فوافى النبي ﷺ بخيبر ، وقد افتتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧هـ . ورد ذكر هذه السرية في البخاري[3] . قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية[4] .

---

(١) ابن سعد .

(٢) ابن هشام ٢/٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث : وانظر زاد المعاد ٢/١٤٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٤) فتح الباري ٧/٤٩١ .

بقية السرايا والغزوات

في السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة ؛ تفرغ تماماً للالتفات إلى الجناح الثالث ، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد ، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى .

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع ، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تماماً تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ، ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب ، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى .

ولفرض الشوكة – أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة – قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر ، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ .

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أنمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم في أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ، ولقي جمعاً من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف .

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا[1] .

وفيه عن جابر : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة ؛ فجاء رجل من المشركين ، فاخترط سيف رسول الله ﷺ ، فقال : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس . ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، وكان للنبي ﷺ أربع ، وللقوم ركعتان[2] .

وفي رواية أبي عوانة : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال الأعرابي : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلى سبيله . فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس[3] .

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث[4] قال ابن حجر : ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين والله أعلم[5] .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٢/٥٩٢ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ٢/١١٨ .

(٢) صحيح البخاري ١/٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٢/٥٩٣ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٦٤ ، وانظر فتح الباري ٧/٤١٦ .

(٤) صحيح البخاري ٢/٥٩٣ .

(٥) فتح الباري ٧/٤٢٨ .

دماً في أصحاب محمد ﷺ ، فجاء ليلاً ، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيئة[1] للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عباداً وهو قائم يصلي بسهم فنزعه ، ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها[2] .

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة ؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترىء أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنيناً ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا ، وهاك بعض تفصيلها :

١ ـ سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بقديد ، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ . كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردهم جيش كبير من العدو ، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون في بقية الانسحاب .

٢ ـ سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧هـ ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك .

٣ ـ سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧هـ . ومعه ثلاثون رجلاً ، كانوا

(١) ربيئة : الشخص المخصص للمراقبة .

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٣/٢ ، إلى ٢٠٩ ، زاد المعاد ١١٠/٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، فتح الباري ٤١٧/٧ إلى ٤٢٨ .

يسيرون الليل ويستخفون في النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم ، فلم يلق أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٤ – سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧هـ ، في ثلاثين رجلاً . خرج إليهم واستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرموهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ – سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧هـ إلى بني عوال ، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة ، وقيل إلى الحرقات من جهينة في مائة وثلاثين رجلاً ، فهجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعماً وشاء ، وفي هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد مرداسَ بن نهيك بعد أن قال : لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ ، هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ – سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧هـ في ثلاثين راكباً . وذلك أن أسيراً أو بشيراً بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيراً في ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين .

٧ – سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة) في شوال سنة ٧هـ في ثلاثمائة من المسلمين ، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة . فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب بشير نعماً كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة ، إلى رسول الله ﷺ ، فأسلما .

٨ – سرية أبي حدرد الأسلمي إلى الغابة . ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حربية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستاق الكثير من الإبل والغنم[1] .

(١) زاد المعاد ١٤٩/٢ ، ١٥٠ ، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢٢٩/٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، زاد المعاد ١٤٨/٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، تلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها ص٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

عمرة القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أهـ[1] .

واستخلف على المدينة عويف أبا رهم الغفاري ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي ، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة ، ولبى ، ولبى المسلمون معه ، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة ، خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها ، الحجف ، والمجان ، والنبل ، والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب[2] .

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكباً على ناقته القصواء ، والمسلمون متوشحو السيوف ، محدقون برسول الله ﷺ يلبون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان – الجبل الذي في شمال الكعبة – ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركين قوته[3] ، كما أمرهم بالاضطباع ، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى ، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى .

---

(١) فتح الباري ٧/٧٠٠ .

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢/١٥١ .

(٣) صحيح البخاري ١/٢١٨ ، ٢/٦١٠ ، ٦١١ ، صحيح مسلم ١/٤١٢ .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه ، ثم طاف ، وطاف المسلمون ، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله ... في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[1]

وفي حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي حرم الله تقول الشعر ؟. فقال له النبي ﷺ : « خل عنه يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل »[2] .

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رآهم المشركون قالوا : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[3] .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، فلما فرغ من السعي ، وقد وقف الهدي عند المروة ، قال : « هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر » . فنحر عند المروة وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم بعث ناساً إلى يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً ، فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ ، ونزل بسرف فأقام بها .

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة ، تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي ، واختصم فيها علي وجعفر وزيد ، فقضى النبي ﷺ لجعفر ، لأن خالتها كانت تحته .

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية ، وكان رسول الله ﷺ قبل

---

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها في الروايات فجمعنا بين شتيتها .

(٢) رواه الترمذي ، أبواب الاستئذان والأدب ، باب ما جاء في إنشاد الشعر ١٠٧/٢ .

(٣) صحيح مسلم ٤١٢/١ .

الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة ، فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها إياه ، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي ، فبنى بها بسرف[1] .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية ، والوجه الثاني رجحه المحققون[2] وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح[3] .

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا ، هاك تفصيلها :

١ ـ سرية ابن أبي العوجاء ، في ذي الحجة سنة ٧هـ ، في خمسين رجلاً بعثه رسول الله إلى بني سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا ، ثم قاتلوا قتالاً شديداً ، جرح فيه أبو العوجاء ، وأسر رجلان من العدو .

٢ ـ سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ٨هـ . بعث في مائتي رجل ، فأصابوا من العدو نعماً ، وقتلوا منهم قتلى .

٣ ـ سرية ذات أطلح في ربيع الأول سنة ٨هـ . كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً ، فلقوا العدو ، فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد ، فقد ارتث من بين القتلى[4] .

٤ ـ سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٨هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً ، فاستاقوا نعماً من العدو ، ولم يلقوا كيداً[5] .

---

(١) زاد المعاد ١٥٢/٢ .

(٢) انظر زاد المعاد ١٧٢/١ ، فتح الباري ٥٠٠/٧ .

(٣) انظر نفس المصدر الأخير .

(٤) رحمة للعالمين ٢٣١/٢ .

(٥) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ص٣٣ حاشية .

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن ، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى ، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩م .

ومؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

سبب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني – وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر – فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[1] ، وهو أكبر جيش إسلامي ، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصية رسول الله ـ ﷺ ـ إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : « إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة »[2] . وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة[3] .

---

(١) زاد المعاد ١٥٥/٢ ، فتح الباري ٥١١/٧ .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٧ .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم ، وقاتلوهم ، وقال لهم : « اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغيروا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ، ولا تهدموا بناء »[1] .

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبدالله بن رواحة

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس ، ودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم ، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله بن رواحة ، فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ، ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (١٩ : ٧١) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين غانمين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ[2] تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي[3] ... أرشده الله من غاز ، وقد رشدا

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم[4] .

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان ، من أرض الشام ، مما يلي الحجاز الشمالي ، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف .

---

(١) نفس المصدر ، ورحمة للعالمين ٢/٢٧١ .

(٢) الفرغ : السعة .

(٣) الجدث : القبر .

(٤) بن هشام ٢/٣٧٣ ، ٣٧٤ ، زاد المعاد ٢/١٥٦ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٧ .

المجلس الاستشاري بمعان:

لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم ، الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة – وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرمرم ، مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمون ، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي ، وشجع الناس ، قائلاً : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة . وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، فعسكروا هناك ، وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذري ، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري .

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك في مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة – حب رسول الله ﷺ – وجعل يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم ، وخر صريعاً .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل . يقال : إن رومياً ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة ، يطير بهما حيث يشاء ، ولذلك سمي بجعفر الطيار ، وبجعفر ذي الجناحين .

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره . يعني ظهره[1] .

وفي رواية أخرى قال ابن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية[2] . وفي رواية العمري عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده »[3] .

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... كارهة أو لتطاوعنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي أراك تكرهين الجنه

ثم نزل ، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان ـ اسمه ثابت بن أرقم ـ فأخذ الراية وقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على

---

(١) صحيح البخاري ، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢ .

(٢) نفس المصدر ٦١١/٢ .

(٣) انظر فتح الباري ٥١٢/٧ ، وظاهر الحديثين التخالف في العدد ، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام ، انظر المصدر المذكور .

خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً ، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[1] . وفي لفظ آخر : لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية[2] .

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة – مخبراً بالوحي ، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال – : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم[3] .

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم ، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه .

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً . ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، في أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية ، تلقي الرعب في قلوب الرومان ؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد ، فجعل مقدمته ساقة ، وميمنته ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، وصار خالد – بعد أن تراآى الجيشان ، وتناوشا ساعة – يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون في

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/٦١١ .

(٢) نفس المصدر ٢/٦١١ .

(٣) نفس المصدر ٢/٦١١ .

الانحياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة[1] .

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً ، أما الرومان ، فلم يُعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم .

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذي عانوا مرارتها لأجله ، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء هذا الجيش الصغير – ثلاثة آلاف مقاتل – مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير – مائتا ألف مقاتل – ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر ، كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقاً ، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .

* * *

سرية ذات السلاسل:

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة ، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سبباً للائتلاف بينها وبين المسلمين ، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

(١) انظر فتح الباري ٥١٣/٧ ، ٥١٤ ، زاد المعاد ١٥٦/٢ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتي قبلهما .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي ، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة ، فبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معاً .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن مر به من بلي وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار – فيهم أبو بكر وعمر – وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا ، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت عليَّ مدداً ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وطيء بلاد قضاعة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقي في آخر ذلك جمعاً ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم ، وما كان في غزاتهم .

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادي القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمي ذات السلاسل[1] .

سرية أبي قتادة إلى خضرة:

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨هـ . وذلك لأن بني غطفان كانوا يتحشدون في خضرة – وهي أرض محارب بنجد – فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً فقتل منهم ، وسبى وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة[2] .

(١) انظر ابن هشام ٦٢٣/٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، زاد المعاد ١٥٧/٢ .

(٢) رحمة للعالمين ٢٣٣/٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٣ .

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم : هوالفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين ، من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً أ هـ[1] .

سبب الغزوة:

قدمنا في وقعة الحديبية أن بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد – ﷺ – وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق ، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، ووقعت هذه الهدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا

---

(١) زاد المعاد ٢/١٦٠ .

قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي ، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فوقف عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال :

يا رب إني ناشد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتلدا[١]
قد كنتم ولداً وكنا والدا[٢]	ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر ، هداك الله ، نصرا أيداً	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله ، قد تجردا	أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا
إن سيم خسفاً وجهه تربدا	في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا	وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل ، وأقل عددا	هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعاً وسجدا[٣]

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدراً محضاً ونقضاً صريحاً للميثاق لم يكن له أي

---

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أم عبد مناف – وهي حبى زوجة قصي – كانت من خزاعة .

(٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

مبرر ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها ، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلساً استشارياً ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ؛ ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم . قال : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة .

وخرج أبو سفيان – حسب ما قررته قريش – فلقي بديل بن ورقاء بعسفان – وهو راجع من المدينة إلى مكة – فقال : من أين أقبلت يا بديل ؟ – وظن أنه أتى النبي ﷺ – فقال : سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا .

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدي شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان ، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحني . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك . ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكني لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، قد أشار علي بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة – قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام – أن تجهزه ، ولا يعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال : يا بنية ما هذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدري . فقال : والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لا علم لي . وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً ، وارتجز : يا رب إني ناشد محمداً .. الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة ، في أول شهر رمضان سنة ٨هـ ، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتذهب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ

خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته[1] .

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والمقداد ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالا : معك كتاب ؟ فقالت ما معي كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فذرفت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم[2] .

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال .

---

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله محلم بن جثامة لشيء كان بينهما ، وأخذ بعيره ومتبعه ، فأنزل الله ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ الآية ، وجاؤوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لا تغفر لمحلم ، وقالها ثلاثاً ، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر زاد المعاد ٢/١٥٠ ، وابن هشام ٢/٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ .

(٢) انظر صحيح البخاري ١/٤٢٢ ، ٢/٦١٢ .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة ، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية ، فأعرض عنهما ؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك . وقال علي لأبي سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (١٢ : ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ :﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٢ : ٩٢) فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ... على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد[1] .

الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد – وهو ماء بين عسفان وقديد – فأفطر وأفطر الناس معه[2] ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران – وادي فاطمة – نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

---

(١) حسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفاً من حمزة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا علي ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري ٦١٣/٢ .

أبو سفيان بين يدي رسول الله - ﷺ -:

وركب العباس – بعد نزول المسلمين بمر الظهران – بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة أو أحداً يخبر قريشاً ؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن زرقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسير عليها – أي على بغلة رسول الله ﷺ – إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي . قلت : هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع صاحباه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ،